تاريخ جحا ...

للأستاذ كامل كيلانى

— ٢ —

٩ — شخوص جحوية

وكما أسند القصصى الجحوى إلى جحا التركى ، ممثلا فى الأستاذ نصر الدين ، أسند مثله — أو قريب — إلى جحا الألمانى ممثلا فى :

« تِلْ أُولِن شبيجل »

أعنى « تل » الملقب بـ « مرآة البومة » و « جحا » اليونانى ممثلا فى « ديوجين » « Diogéne »

و « جحا » الفرنسى يمثله السادة : « دى كراك » مرة « M M de crac » و« دى لاباليس » « de la Palisse » مرة ثانية و « ميشيل موران » « Michel Morin » مرة ثالثة وفى مرسيليا نرى « مسيو بونوس » « M Bonosse » و « كالينو » « Calino » و « ماريوس » « Marius » وفى باريس « دوق دى سان سيمون » « duc de saint simon » وله إلى هذه الشخصيات الجحوية المتخيلة الفاتنة التى تشيع فى أرجاء فرنسا وغيرها روح الدعابة البريئة والتهكم الساذج .

كما أسند إلى جحا الفارسى ممثلا فى « طلحة » ، وجحا الهندى ممثلا فى الشيخ تشلى ، وجحا الأرمنى ممثلا فى أرتين . وجحا الانجليزى يمثله فى انجلترة « سمبل سيمون » « Simple Simon » .

وقد ذاعت فى بريطانيا أسماء طائفة من القديسين ، افتن الظرفاء والمتظرفون فى إسناد طرائف من الدعابة إليهم ، ونحلوهم ما شاء لهم الخيال الخصب من فنون الفكاهات الحلوة المحببة ، والنكات البريئة المستعذبة . فاشتهر فى إيرلندة « پات » وهو — كما يرى القارىء — ترخيم لإسم القديس « پاتريك » « Saint Patric » ، وقد كاد يصبح لقبا على كل إيرلندى فى معرض الدعابة والتنادر ، والتمثيل للسذاجة وطيبة القلب .

واشتهر فى اسكتلندة « داود » « Saint David » وكاد يصبح علما على كل اسكتلندى ، وافتن المتخيلون فى إسناد كل ما خطر ببالهم من نوادر البخل والتقتير .

واشتهر « اندراوس » « Saint Andreus » كذلك فى جنوب انجلترة ، فى بلاد الغال (الويلز) ، كما اشتهر جورج « Saint jeorge » فى انجلترة .

وقد أصبحوا — على توالى الزمن — أعلاما للفكاهة والمرح فى بلادهم ، ثم ذاعت بدائعهم فى العالم ، فأشاعت فى أرجائه ألوانا مشرقة من البهجة والسرور .

* * *

وليست شخصية « دون كيشوت » إلا لونا مبتدعا جديداً لشخصية جحا كما يتخيلها الأسبان .

وقلما تخلو أمة من مثال قريب أو بعيد لهذه الشخصية المرحة الطريفة ، وقد طوّع القصاصون كثيراً من الطرائف والرموز الجحوية ، وفصّلوا منها أنماطاً فكرية أليسوها عرائس أفكارهم وآرائهم .

ولم تلبث الصورة الجحوية على مدى الأزمان واختلاف الأمم التى تناقلتها أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها . كما يتشكل الماء بلون الإناء الذى يستودع فيه .

١٠ — قبره :

إن البحث ليطول إذا لم نوجزه إيجازاً حتى ليضيق الوقت الفسيح بتفصيل قليل من كثير مما عرضنا له .

ويحسبنا أن نقرر الآن فى هذه الإلمامة الخاطفة أن جحا التركى كاد يكون نسخة مكررة من جحا العربى ، وإن ضاع قبر الثانى فلم يعرف له مكان كما ضاع الكثير من آثاره فلم يهتد إليه . وبقى قبر الأول مزاراً يحج إليه فى مقبرة « آق شهر » .

١١ — من آراء الناس :

وقد غلا بعض الناس ، فكاد يلحق الجحيين كليهما

بالأولياء والأطهار والقديسين الأبرار .

وغلا آخرون ، فكادوا يتمثلون كليهما آية من آيات الغفلة والبله ، ومثلا من أمثلة الغباء والحماقة ، وتمثلهما آخرون نموذجا للخداع والتلبيس ورمزاً للغش والتدليس .

١٢ — مذهب « أبي الفضل » :

ومهما يكن من أمر ، فقد كان كلا الجحيين ذكياً بارعاً ، راجح العقل ، محدّثا (أي : ملهماً صادق الفراسة) ، يتغابى في غير غباء ، ويتباله في غير بله ، ويمكر في غير خبث ، ليخلُص من كيد الكائدين ، وينجو من بطش المعتدين .

ورحم الله شوقي بك القائل :

«إذا الفتنة اضطرمت في البلاد ورمت النجاة، فكن إمّعه»

(والإمعة كما تعلمون ، هو الذي يقول لكل إنسان أنا معك)

وإليكم شعار الأول أعني شعار : « أبي الفضل عبد الله دجين بن ثابت » المعروف بجحا العربي ، وهو يلخص رأيه في الحياة أبدع تلخيص :

« مذهبي في الحياة صبر جميل هل ينجّي من البلاء عويل
لم أضق بالحياة ذرعاً ، وعندي بسمات للخطب وهو جليل
لا أرى في الوجود إلا جمالا كل ما في الوجود حُسن أصيل
أضمرُ الصفح والمحبـــة للنا س ، إذا ما أساء باغٍ جهول
الأمانيُّ عـــذبة أسعدتني فحياتي بهن حُلمٌ جميل
وحماقات من أرى أضحكتني وتمنّى بهـا غضوب ملول
إنما يغلب الزمان صبور واسع الصدر باسم بهلول
لا يهاب الخطوب إن دهمته سوف يتلو الأحزان أنس طويل
كل خطب إذا صبرت تولّى ، وتجلّى ، وكل حال تحول »

١٣ — مذهب نصر الدين :

وهو بهذا يلتقي مع فلسفة الأستاذ نصر الدين خوجة أو جحا التركي كما يسمونه ، الذي اتخذ شعاره في الحياة قوله :

« مذهبنا أن نتسلى بالحياه
بما نلاقي من سرور وأذاه
فالكون محبوب بهيج ما حواه
وما نرى إلا جميلا ما نراه »

١٤ — تشابه المذهبين :

على أن كلا الجحيين كان كما يقول فيلسوف المعرة :

« إذا سألوا عن مذهبي فهو بين وهل أنا ، إلا مثل غيري أبلهُ
خلقت من الدنيا ، وعشت كأهلها أجدُّ كما جدُّوا ، ألهو كما لهوا »

فقد أحسن المعري التعبير عنهما ، بهذين البيتين ، وإن كان يفصله زهاء قرنين من الزمان بعد مولد أولهما وثلاثة قرون قبل مولد الآخر منهما . وكأنما ألهم المعري قوله :

« إن جدَّ عالمك الأرضي في نبأٍ يغشاهم ، فتمثل جدَّهم لعبا »

وقوله :

« تَرَجَّ — بلطف القول — ردّ مخالفٍ
إليك ، فكم طِرْف يكبّ بالنَّقْر »

١٥ — تشابه الرجلين :

لقد تشابه الجحيان — كما أسلفت لحضراتكم — كما تشابه الموز أو البرتقال في رأي بعض الشعراء حين قال :

... ... فالفم ملآن به فارغ
سيان قلنا : مطعم طيب فيه ، وإلا مشرب سائغ »

تشابه الرجلان وامتزجت آثارهما ، بعضُهما ببعضٍ ، كما امتزجت — بعد ذلكم وقبله — بالكثير من آثار غيرهما من الشخصيات الجحوية وما إليها . وما أضيف عليها مما تخيله المتخيلون ، وانتحله المنتحلون ، حتى أصبحت كلمة « جحا » الآن كافية للتعبير عن كل جحا ، في كل عصر ، وفي كل أمة ، كما أصبحت كلمة « خرافة » أيضاً كافية للتعبير عن كل حديث خيالي لا حقيقة له : قديماً كان أو حديثاً ، رائعاً أم سخيفاً ، عربياً أم أعجمياً ، شرقياً أم غربياً ، وقد أصبح الرمز الجحوي — على توالي الأجيال — أشبه بالرمز الجبري ، فإن « س » تارة تساوي مليوناً من الجنيهات ، وتارة تساوي عشر تفاحات ، وثالثة ست دجاجات ، ورابعة صفراً .

وقد ألف « كارليل » — فيما يعلمه الكثيرون منكم — كتاب الأبطال ، فتحدث عن البطل في صورة نبي ، والبطل في صورة زعيم ، والبطل في صورة قائد ، والبطل في صورة شاعر وهكذا .